مفاهيم
إيمانية
(٥)

الدعوة والاختيار في الكتاب المقدَّس

«لِذلِكَ بِالأَكْثَرِ اجْتَهِدُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْعَلُوا دَعْوَتَكُمْ وَاخْتِيَارَكُمْ ثَابِتَيْنِ» (٢بط ١: ١٠)

(أ)

عمومية الدعوة وقَصدِ الله:

تُمثِّل الدعوة الإلهية في الكتاب المقدَّس صوتَ الله للبشرية، وتكشف لنا عن قصده من نحو جبلتنا، التي أحبَّها ووهبها كل شيء لتحقيق غايته من خلقتها، أي لتَنعمَ بمعيَّة الوجود معه في حضرته الإلهية، والحياة الدائمة في ملكوته، والتمتُّع والفرح بمراحمه وخيراته وصلاحه إلى الأبد. وكذا في نَيْل معرفة الحق وتكميل الخلاص الموهوب لها مجَّانًا، من قِبَل تجسُّد وفداء ابنه الوحيد يسوع المسيح، فكيف لا يهبها معه كل شيء!

والكتاب المقدس يُعلن لنا صراحة عن قصد الله لجميع البشر، إذ يقول: «الَّذِي يُرِيدُ أَنَّ **جَمِيعَ النَّاسِ** يَخْلُصُونَ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ» (١تي ٢: ٤). إذن، فدعوة الله وقصده الخلاصي هما عطية عامة ومجَّانية لجميع الناس. وهذا يتوافق مع قول الروح القدس لنا في سفر أعمال الرسل: «فَانْدَهَشَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ مِنْ أَهْلِ الْخِتَانِ... لأَنَّ مَوْهِبَةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ قَدِ انْسَكَبَتْ عَلَى **الأُمَمِ أَيْضًا**» (أع ١٠: ٤٥). فالروح القدس قد أُعطِيَ للجميع دون تمييز، كما ذُكر في نفس السفر: «وَامْتَلأَ **الْجَمِيعُ** مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ» (أع ٢: ٤). وأيضًا يقول بولس الرسول بالروح في رسالته لأهل رومية: «سَأَدْعُو الَّذِي **لَيْسَ شَعْبِي شَعْبِي**» (رو ٩: ٢٥)، كما يؤكِّد بطرس الرسول ذلك الأمر عينه، عند دعوته كرنيليوس، فيقول مخاطبًا الذين هم من أهل الختان قائلًا: «فَإِنْ كَانَ اللهُ قَدْ أَعْطَاهُمُ الْمَوْهِبَةَ **كَمَا لَنَا أَيْضًا بِالسَّوِيَّةِ** ... فَمَنْ أَنَا؟ أَقَادِرٌ أَنْ أَمْنَعَ اللهَ؟» (أع ١١: ١٧). ونحن نصلي في ختام صلوات السواعي بالأجبية المقدسة قائلين: "**الداعي الكل** إلى الخلاص لأجل الموعد بالخيرات المنتظرة".

لكن علينا أن نلاحظ، أن دعوة الله – مع أنَّها **دعوة عمومية** وشاملة لجميع الناس – إلَّا إنها لا تتعارض مع كونها أيضًا **دعوة خاصة** وموجَّهة لكل إنسان باسمه وليس بصفته أو قامته أو نَسَبه أو جنسه؛ فالذي يقول: «تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ ...» (مت ١١: ٢٨)، هو نفسه مَنْ دعا إبراهيم باسمه قائلًا: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!» (تك ٢٢: ١١)، وهو مَنْ نادى صموئيل النبي: «صَمُوئِيلُ، صَمُوئِيلُ» (١صم ٣: ١٠)، وهو مَنْ خاطبَ بولس الرسول (شاول) بقوله: «شَاوُلُ، شَاوُلُ» (أع ٩: ٤). وصار مفتاح التَمتُّع بكل نِعَم هذه الدعوة الإلهية والمجَّانية، وتحقيق قصد الله الخلاصي الكائن فيها، يكمن في الاستجابة الطوعية لها من جانب الإنسان، حتى يتلاقى قصد الله المحبّ – في إتمام خلاص الإنسان – مع قصد الإنسان نفسه، ورغبته الصادقة في إتمام هذه المشيئة الإلهية بقبوله لها. ذلك لأن نداء الله ودعوته يستلزمان أذنًا تُجيد الاستماع، وقلبًا مُلَبِّيًا لهذه الدعوة من قِبَل الإنسان.

التوافق بين قصد الله وقصد الإنسان:

بالرغم من وضوح قصد الله وغايته في تحقيق خلاص الإنسان وسعادته، والذي أعلنه مرارًا كثيرة للبشر، وتمثَّل أولًا في الكلمة النبويَّة المكتوبة والمنطوقة بفم ملائكته وأنبيائه ورسله وخدَّامه على مدى الزمان، ثم أخيرًا بتمام استعلانه في شخص ابنه يسوع المسيح الكلمة المتجسِّد؛ إلَّا إن دعوة الله كثيرًا ما اصطدمت بعدم القبول أو التوافق مع مقاصد الإنسان وميوله **وإرادته**. علمًا بأن قبول هذه الدعوة كفيل بإدخال الإنسان في إطار دائرة أخرى أعظم وأهم لحياته، وهي دائرة **الاختيار والتعيين**. أمَّا سرُّ هذا التعارض فيعلنه لنا الرب يسوع في قوله: «أَرَدْتُ ... وَلَمْ تُرِيدُوا» (مت ٢٣: ٣٧). وسبب هذا التعارض بين القصدين، إنما يعود إلى الإنسان، الذي – في محاولته لتحقيق طموحاته ومقاصده الآنيَّة ورغباته المحدودة بحسب رؤيته الضيِّقة – يسعى دائمًا أن يتمتع بكل الامتيازات والعطايا والنعم الإلهية دون أن يكون مستعدًّا لتحمُّل أي مسؤولية أو تكلفة في مقابل الحصول عليها. فهو على مثال ما فعل بطرس الرسول، الذي شرع يقايض الرب يسوع ويسأله عن مكافأة تبعيَّته له، فيقول للسيد: «هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ. فَمَاذَا يَكُونُ لَنَا؟» (مت ١٩: ٢٧)، ومثله أيضًا فَعَلت أُمُّ ابنَي زبدي، إذ طلبت من الرب أن

يجلس واحدٌ من ولديها عن يمينه، والآخر عن يساره في مجده! (انظر: مت ١٩: ٢١)، في الوقت الذي لم تتطرَّق فيه قط لأي حديث عن أية مسؤولية أو تكلفة يتحملانها أو صليب أو جهاد حتى الدم، أو حتى دخول من باب ضيِّق من أجل الرب. فالحقيقة الغائبة هنا – وهي قاعدة قبول الدعوة – هي أنه لا توجد امتيازات بدون التزامات ومسؤوليات، ولا مكافآت بدون تكلفة، أو قيامة بدون صليب، لذلك يتعثَّر أحيانًا التقاء قصد الله الهادف لتحقيق خلاص الإنسان، مع قصد الإنسان وإرادته وذلك بسبب محاولته الهروب من حمل نير الصليب، الذي سيقوده نحو النصرة والقيامة والخلاص، متناسيًا مواعيد الله بإعطاء المعونة والتعضيد لكل من يقبل الدعوة ويحمل الصليب ويتبع الرب من كل قلبه: «لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ» (مت ١١: ٣٠).

وفي هذا الصدد نستطيع أن نقول أيضًا، إن المدعوين **بحسب قصد الله وعلمه السابق** هم أولئك المزمعون أنْ يُحِبُّوا الله محبة حقيقية، والمستعدُّون لقبوله والإيمان به مخلصًا وفاديًا لهم من كل قلوبهم، هؤلاء هم الذين اقتادهم الروح القدس لقبول الدعوة السماوية، لذلك أعطى الله لهم أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه: (انظر: يو ١: ١٢). وكل هؤلاء الذين يخلصون، **إنما يخلصون بمقتضى علم الله السابق**، كما في: (رو ٩: ١١؛ ١كو ١: ٢٤؛ أف ١: ١١). **فالذين يحبون الله هم أنفسهم المدعوون حسب قصده، فالحبُّ هو علامة صدق الاختيار** (انظر: رو ٨: ٢٨). وبما أن قصد الله ودعوته هو إعلان عن هبة محبة مجانية للإنسان، خُلوًا من أي استحقاقٍ ذاتي من جانبه، فقد أعطى الله هِبة الحُبِّ للإنسان أيضًا كعمل اختياري؛ لكي يُظهر لنا مدى الحرية المُعطاة للإنسان لتحديد اختياره، دونما أن تكون هناك معارضة بين قصد الله الأزليِّ في تحقيق خلاص الإنسان الذي يحبه، وبين الاختيار الحرِّ للإنسان للدخول في دائرة المختارين من الله من قِبَل إيمانه ومحبته لله، والثبات في هذه المحبة. علمًا بأنه من العسير على العقل البشري، بل وأمرٌ فائق عن القدرات الطبيعية للإنسان أن يُدرِك سرَّ التوافق بين مقاصد الله العليا ومشيئته – بحسب سابق علمه ومعرفته – وبين حرية الإنسان واختياراته لإتمام هذه المقاصد، فهي أمور يعجز العقل الإنساني عن سبر أغوارها: «مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الاِسْتِقْصَاءِ!» (رو ١١: ٣٣).

من هم المختارون؟:

الاختيار في الكتاب المقدس هو مبادرة حُبٍّ مجانية من الله الخالق للإنسان، وهو عملٌ إلهيٌّ حُرٌّ تمامًا، ولا يخضع لأي مقاييس بشرية، بل هو أمرٌ يعلو عن إدراكنا البشري ويعود إلى حكمة الله نفسه، الذي يريد أن يُتمِّم مشيئته وقصده في خلاص الإنسان وسعادته. وهناك الكثير من أمثلة هذا الاختيار الحرّ في تعاملات الله مع الإنسان، فنرى الرب يختار إنسانًا أو أشخاصًا لإعطائهم تكليفات محدَّدة، لينجزوا أمورًا يرى الرب أنهم يصلحون لإتمامها؛ مثل دعوته لبولس الرسول، إذ قال لحنانيا عن شاول (بولس): «هذَا لِي إِنَاءٌ مُخْتَارٌ لِيَحْمِلَ اسْمِي» (أع ٩: ١٥)، وكذلك في انتخاب الرب للرسل الأطهار، وتمييزهم عن جموع السائرين خلفه، وعن هذا يكتب البشير: «وَاخْتَارَ مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِينَ سَمَّاهُمْ أَيْضًا رُسُلًا» (لو٦: ١٣)، وأيضًا: «الرُّسُلَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ» (أع ١: ٢). وكذلك في دعوته الكهنوتيَّة للبعض لخدمة اسمه القدوس.

وبصفة عامة فإنَّ المؤمنين المستعدين لإتمام خلاصهم بخوف ورعدة هم مَنْ يدعوهم الكتاب المقدَّس بالمختارين، وبالمثل فإن المدعوِّين المختارين هم أولئك المؤمنون الثابتون في المسيح، الذين لبُّوا النداء وقبلوا الدعوة وارتضوا حمل الصليب. فبولس الرسول يخاطب المؤمنين كمختارين من الله قائلًا: «فَالْبَسُوا كَمُخْتَارِي اللهِ الْقِدِّيسِينَ الْمَحْبُوبِينَ أَحْشَاءَ رَأْفَاتٍ ...» (كو ٣: ١٢)، ويكتب أيضًا: «مَنْ سَيَشْتَكِي عَلَى مُخْتَارِي اللهِ؟ اللهُ هُوَ الَّذِي يُبَرِّرُ» (رو ٨: ٢٣)، وعادة ما يُطلَق تعبيرا المختارين أو المعيَّنين في الكتاب المقدس – دون تمييز بينهما – على المؤمنين المتمسِّكين بخلاصهم: «الَّذِينَ مَعَهُ مَدْعُوُّونَ وَمُخْتَارُونَ وَمُؤْمِنُونَ» (رؤ ١٧: ١٤).

كما تتجلَّى عظمة عمل الرب واختياراته دائمًا، في اختصاصه **الضعفاء والفقراء والمزدَرى وغير الموجود،** وكذا في اختياره للمساكين بالروح (**المتضعين**) ليكونوا أهلًا لاستعلان قوَّته وحكمته ومحبته، ويؤهَّلون لملكوته: «اخْتَارَ اللهُ **ضُعَفَاءَ الْعَالَمِ** لِيُخْزِيَ الأَقْوِيَاءَ» (١كو ١: ٢١-٢٤؛ ١: ٧)، وأيضًا كما ورد في تسبحة القديسة مريم العذراء: «أَنْزَلَ الأَعِزَّاءَ عَنِ الْكَرَاسِيِّ وَرَفَعَ **الْمُتَّضِعِينَ**» (لو ١: ٥٢).

كذلك أيضًا تظهر ملامح اختيارات الله، في اختياره **للمستعدين لتحمُّل المسئولية** وحمل الصليب، ومثال ذلك قول السيدة العذراء لملاك البشارة: «هُوذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ» (لو ١: ٣٨)، وكذلك في رد إشعياء على النداء "مَنْ أُرسِل؟"، إذ أجاب: «هَأَنَذَا أَرْسِلْنِي» (إش ٦: ٨)، وأيضًا في إجابة صموئيل النبي على صوت الله: «تَكَلَّمْ لأَنَّ عَبْدَكَ سَامِعٌ» (١صم ٣: ١٠). وهنا نتذكر قول الرب يسوع وتنبيهه: «مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ» (مت ١٩: ١٢).

ولكن من المهم أن نتأكَّد من أننا جميعنا مختارون للخلاص في المسيح يسوع من قبل إنشاء العالم، وكلُّنا معيَّنون لميراث الحياة الأبدية مع المسيح، فنحن مختارون ومعيَّنون للتَبنِّي بيسوع المسيح: (انظر: أف١: ٣-٥، ١١، ١٢). وبرُّ المسيح الموهوب مجَّانًا بإرادة الله الحرَّة والكاملة، وهبة الإيمان المُعطاة لنا بشركة موته وقيامته في المعمودية المقدسة، هو ما يختاره الإنسان ويجوزه ليُبَرهِن أنه **مختار من الله** في وجه يسوع المسيح. **إذن، فكل من يُحبُّ ويُطيع** – من كل القلب – لدعوة المسيح فقد أثبَت أنه **مختارٌ ومدعوٌّ** بحسب مشيئة الله وعلمه السابق أيضًا.

والخلاصة هي، أنَّ الغاية العظمى للاختيار المجاني الموهوب من الله للإنسان، هي منحه نعمة الشركة في تتميم مشيئة الله وقصده الخلاصي له، وأنَّ قبول الدعوة والاستجابة الصادقة لها، والاقتراب للحوار مع الله من أجل إتمام غاية هذه الدعوة، يضمن للإنسان فرح الخلاص ونيل الحياة الأبدية، لأن علامة القبول تتجلى في التسليم والخضوع تحت يد الله القوية، وقبول حمل نير الصليب للدخول مع المسيح في شركة آلامه، تمهيدًا للشركة في استعلان مجده. وهنا، يتلاقى قصد الله الخلاصي للإنسان مع قصد الإنسان، حينما يختم الإنسان على قبول الدعوة وإتمامها بسلوكه بخوف ورعدة أمام الله بكامل إرادته وحريَّته. أمَّا رَفضُ الإنسان لهذا الاختيار المجاني، أو النكوص فيه، فيمكن أن يُفقِده كل شيء. والإنسان الذي يتهرب مِن تلبية الدعوة وسماع صوت الله والاستجابة له، يُظهِر نفسه رافضًا للاختيار الإلهي، وغير مؤهَّل لطريق الملكوت.

(يتبع)